

سر من رأى

من كتاب « عبد الله بن المعتز »

نحو الطبع

لحضرة الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

على مقربة من قم القاطول ، رافد دجلة الذى حفره هرون الرشيد ، والذى طمر الآن ، وعلى مسيرة ثلاثة أيام من منبع ذلك النهر كبجسابهم فى السير ، وبالقرب من قصر هناك للرشيد ودير لجماعة من الرهبان — فضاء ذو سمة ، به أعذب الماء وأصفاه . وأخصب التربة وأجودها ، يهب به أنقى الهواء وأطيبه ، ويسكنه أو ينزح إليه أسمن الصيد وأكثره ، فاذا قصد المرتاد منزها شافيا أو قصد التازل مقاماً طيباً ، لم يجد خيراً من هذا المنزه والمقام ؛ وإنه لياكل فيه أكثر مما اعتاد أن يأكل لما يفعله بهضم الطعام هواء المكان وماؤه الطيبان .

وكان يقصد إلى هذا المكان خلفاء العباسية منذ الرشيد ، ثم الوزراء والرؤساء من بغداد وغير بغداد ، فيجدون بالمنزل سرورا ولهاوا وبأهل ذلك الدير راحة وأنسا ؛ وكان المعتصم العباسي أكثر هؤلاء جميعا ترددا على المكان ، وحبا له ، حتى إنه أبقي له به قصراً بالقرب من قصر الرشيد ، ينزل به كلما أحب النزهة وأراد الاستجمام والشفاء .

ركب المعتصم يوماً ببغداد فى موكب من مواكبه فاعترض الموكب شيخ عربى من أهلها ، فارتفعت سياط الجند الترك عليه تريد أن يتنحى عن موكب الخليفة ، ولكن عيني المعتصم أدركته قبل أن تهبط عليه السياط ، فأشار إلى جنده أن يكفوا ، فكفوا ، ولكن الموكب أيضا كان قد كف عن السير .

ودنا الشيخ من مركب المعتصم ، وبدنه يرعد غضباً لارعباً ، وصاح بصوته

الاجش الوقور :

أين المعتصم ؟

فبسط له المعتصم من نفسه وقال : أنا هو ، فاجتاك أيها الشيخ ؟
قال : لاجزاك الله خيرا عن جوارنا يا أبا اسحق ! جاورتنا مدة فرأيناك فيها
شر جار ، جثتنا هؤلاء الغلبان من الترك فأسكتهم بيتنا ، فأبتموا صيانتنا وأرملوا
نساءنا ! والله إن لم تمنعهم عنا لنقاتلنك بسهام الليل ! ثم تنحى الرجل عن طريق
الموكب وقد سكن غضبه وذهبت عنه رعدته ، فأمر المعتصم موكب أن يستأنف
المسير .

وكان يسكن بغداد حول أمراء بني العباس والمعتصم خاصة ثمانية عشر ألفا
أو يزيدون من أهل سمرقند وفرغانة وبقية النواحي التركية ، قد بذلت فيهم الأموال ،
وجيء بهم فزانوا قصبة العباسية ودار الخلافة الإسلامية ، وملثوها على أهلها جلابة
وضوصاء ، وطردوا خيولهم في شوارعها طردهم لها في الخلا ، فصدموا المرأة والفتاة
والشيخ الكبير والطفل الصغير من غير مبالاة ، لأنهم لم يكن لهم ذلك العقل الذي
راضه الاسلام ، ولا القلب الذي لينه ، بل جاءوا إلى الاسلام في خشونة الجهل وقسوة
الظلم ، فلبسوا الدين على أبدانهم دون أن ينفذ منه شيء إلى قلوبهم ، وأصبح الأمر
كله لهم دون العرب ، بل دون الناس ، ولم يكن لغيرهم شيء من قوة أو حيلة ، فلم
يملك أهل بغداد لهم شيئا غير أن يفضوا منهم بقلوبهم تارة ، وبالقصاص منهم غيلة
تارة أخرى ، وبالتندر بهم وبالمعتصم في المجالس على حذر ، وكان التندريبلغ أسماع
الترك وسمع المعتصم فينفى المتندر ويشرد في البلاد ، كما شرد دعبل الشاعر حين تنذر
بهم ؛ فلما بلغ السيل الزبي ، تقدم هذا الشيخ إلى موكب المعتصم يكاشفه بالغضب
وبينه الشكوى .

سمع المعتصم شكايه الشيخ ، ورهب هذه السهام التي هدده بها ، إذ لا قبل له بالدعاء
يرتفع من المظلومين إلى الله في جوف الليل ، وكان الخليفة يعرف الأمر ولا يجمله ،
غير أنه اهتم له بعد ، وأحله من نفسه مكانا .

وكان في بنى السلطان — مهما بلغ سلطانه وامتد بطشه وانبسطت قدرته —
يخاف المظلوم ، ويرهب جانبه ، مهما كان المظلوم ضعيفا ! فاجرح المعتصم مكان

الشكوى، حتى عزم أن يتحول هؤلاء الجند الذين لا غنى لآبئة الملك عنهم إلى مكان آخر غير بغداد.

ولسنا نظلم المعتصم في تقديمه الترك والاحتفال بهم، لجده الأعلى أبو جعفر المنصور أول من قدم الأعراب في مراتب الدولة وأقصى العرب وقدم الخراسانية، ثم قدم الرشيد البرامكة، فأصبحت تلك سنة العباسية، فلا مفر منها ولا مناص.

أسرع المعتصم إلى أهل ذلك الدير القريب من القاطول، ولعله دير السومى، وابتاع منهم الأرض الفضاء الضاربة حوله، لينخطفها مدينة لسكره، فقد عرضت له فرصة محبوبة لبناء مدينة، وهو من طبعه يحب العمارة، ويرى فيها عمران الأرض التى تحيا بها المعالم، وعليها يزكو الحراج. وتكثر الأموال. وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش، فحشد للبناء حشدا كبيرا من الفعلة والعمال، جمعوا من مختلف النواحي والأقطار، وسرعان ما اختطت المدينة، ودربت دروبها، وشيدت قصورها وعلايينها وزخرفت مساجدها، واستنبتت إليها المياه من الدجلة، ونقلت إلى بساتينها أنواع الشجر وأصناف الفروس.

وجعل البلد قطائع لطوائف الجند، كرخ سامرا للترك، والجسر للفراغة، وهكذا، وأفرد أهل كل صنعة أو تجارة بسوق.

وقد قدر للعراق منذ القدم أن تكمل مدنه الجديدة على وجه السرعة، كالبصرة وواسط وبغداد، وكذلك كلت هذه المدينة، والتفت مبانيها دائرة حول قصر المعتصم وبساتينه بحى الويزية الذى اختاره واختصه، وتم ذلك كله فى عام، أو فى أقل من عام، وأثمرت بساتين المعتصم التين الوزيرية، وهو أعذب أنواع التين وأرقها قشرا وأصفرها حبا، لا يبلغه تين الشام ولا تين حلوان، ثم أنواع الفواكه الأخرى.

ثم ظهرت أجناد المعتصم فى سر من رأى، كما سماها البحرى فى شعره لأبراهيم ابن المدبر إذ يقول:

أى شيء أهلك عن سر من رأى وظل للعيش فيها ظليل؟

ظهروا فى أحسن مظهر وأبهى زينة، ظهروا فى حلل الديباج، وتمنطقوا بمناطق

الفضة والذهب ، وعقد رؤسائهم الأوشحة بها مرصعة بأحجار الجوهر الكريم ، وصارت سر من رأى فتنة الناس فقصدوها من كل حذب وصوب ، ولا سيما من بغداد ، وتجماعوا فيها ، فكثرت معاشها وأصبحت زينة البلدان .

وكذلك في عام أو بعضه ، صار ذلك المكان القفر الجديب دارا عامرة ، وسوقا مزدحمة ، خربت بها بغداد ، إذ انتقل إليها الخليفة وجنده ، وتبعهم الذين شكواهم وكرهوا جوارهم ، وحفلت بالفنادق والنزل للزائرين والمتفرجين بمشاهدتها .

ولم تصبح المدينة الزاخرة معرض جمال وسوق تجارة فحسب ، بل أصبحت مع ذلك موطن أهل العلم والأدب والنقد والأخبار والأنساب ، وموطن كثير من الشعراء والكتاب ، ثم الفقهاء وأصحاب المذاهب من أهل السنة والمتكلمين ، والمتصوفة والرافضة وحفاظ الحديث ، بل أصبحت موطن أهل الفتن من المغنين ، وحتى أهل البله من أصحاب الأخبار المضحكة والمجانين .

وقد رأى المعتصم كل ذلك بعينه ، وطرب له ، وحزن لفراقه حين مرض وكان كلما ألح عليه المرض ألح على هذه الديار بوقفات الوداع ، ونزل إلى سفينة في ستر الليل ومعه « زنام » الزامر بالنأي ، يطوفان بشاطئ القاطول على القصور والبساتين من خلفها ، وهو متكئ على فراشه بالسفينة يدعو زناما أن يزمر بين يديه ليسليه ويغنى بقول القائل :

يا منزلا لم تبيل أطلاله	حاشا لأطلالك أن تبكى
لم أبك أطلالك لكننى	بكيت عيشى فيك إذ ولى
والعيش أحلى ما يكاه الفتى	لا بد للحزون أن يسلى

وكان غضب أهل بغداد ما زال بهم على المعتصم حتى قضى على المعتصم ، وما زال بهم على الجند حتى تقاتلوا وقتلوا ، وما زال بهم على ملك المعتصم حتى تمزقت أطرافه وتفرقت أجزاؤه ، وانصب جام الغضب على سرمره ، وما هى إلا لحظة في عمر المدن والقرى حتى أمست والناس يطلقون عليها : ساء من رأى .

نعم ، لقد مضت قليلا بعد سيدها المعتصم في صلاح وزيادة ، وحياة وعمارة ، وأضاف إليها الواثق الهارونية ، والمتوكل المدينة الجعفرية ، فعظم قدرها وبني بها

بناه العظيم المسمى بالبديع ، فلما ولي الخليفة المستعين أمور الناس قويت بضعفها
شركة الأتراك ، وبقتهم أخذت سرمرا في تناقص . كما تناقصت الدولة من
أطرافها ، وانحدرت المدينة الى الزوال سريعا سريعا .

أمست شوهاى في ثوب حسناء ، وأمست عشدنائس وملعب أطماع ، يتواطأ
في قصورها الوزراء مع رؤساء الحجاب على تولية من شاءوا وعزل من أرادوا ،
وعلى الاطلاق والحبس ، والفك والقيد ، وما زالت جرائم العدوى تسرب من
القصور الى بقية الدور ، والى الانحاء والجهات . وما زال الوجع يسرى من الرأس
الى الاعضاء حتى اضطرب الجبل ، واختل الامن ، وشاعت النعنة في النفوس .

ثم اجترأ اللصوص على المدينة فهجموا دورها ، ولم تكن فى أيدى الترك أمنع
منها فى أيدى اللصوص ، بل اجتمعت على تخريبها أيدى أهلها وأيدى الغرباء عنها
وما لبثت غير قليل حتى تكدر بها الهواء الطلق وتكرا الماء الفير ، وتحول الطاردون
من صيادى طير ووحش الى صيادى نفوس وأموال ، ورشت الاسهم فى أيدى
السراق لا فى أيدى الجنود والحراس .

ومرت بها أعوام قن وثورات أقضت مضاجع أهلها ، وطالما فتح الترك
سجونها وأحرقوا الجسور واتهبوا الدواوين ، وكثيرا ما حدث صدام بين الترك
والعامة فسالت الدماء من الفريقين .

وما زالت الخطوب تلح سراعا بهذه القرية الظالم أهلها ، وتغد المصائب تباعا ،
حتى رجع عنها العمران ، ورجع أهل بغداد الى بغداد يحملون أنقاض سامرا لينتوا
بها مدينتهم الزوراء مرة أخرى .

وهكذا أخطأ ظن المعتمدين فى الزمن فليت ورامه الديار والمنازل ، أو لعلها
سبقت عظامه فى البلى والاندثار .

وكان من أمرائها الذين صحبوها وهى عامرة وذاتلة ، وصاخبة وصامتة ابن
المعز ، ذاق لذاتها وهمومها ، فأحبها وآثرها على بغداد ، وألفها وهى تحرب ، وأنس
إليها وهى تبرم بسكانها وتنفض عنها الناس ، وطالما دعا لها بالشفاء والمرض يدب

في جسمها ، وسأل لها السقيا وكل أمواه الدنيا لا تنفى ما أصابها من غلة واحتراق
ونظر اليها نظرة التأمل فوجدها عظة العظاات فقال :

سقى الاله سرورا القطرا والكرخ والخس القرى والجزرا
قد عجمت عودى وكنت مرا حرا إذا لم يك حر حرا
لا تأمنوا من بعد حلم شرا كم غصن أخضر صار جبرا
وقال :

أرى سر مرا مذ سنين كثيرة تزيد خرابا كل يوم وتذبل
كأن بها داء دخيلا فجسمها على ما بها من سقمها يتسلل
وقد ناظر ابن المعتز أصدقائه فيها وفي بغداد ، فكان مما كتب إلى أحدهم في
تفضيلها ، وفيما نزل بها من مصاب قوله :

كتبت إليك من بلدة قد انقض الدهر سكانها ، وأقعد جدرانها فشاهد اليأس
فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمرانها يطوى وكان خرابها ينشر ،
وقد وكلت الى الهجر ، واستحشيت باقيا إلى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار فاجب
فيها حق جوار ، فالظاعن منها بمحو الأثر والمقيم بها على طرف سفر ، نهارة
إرجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف
للعيون الشكوى وتشير إلى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض
وقرار الملك تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أودية السيوف وغلائل الحديد ، كأن
رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها
وتمد بالنقع سائرها ...

على أنها وإن جفت معشوقة السكنى وحبيبة الثوى ، كوكبها يقظان وجوها
عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها مطر وتراها مسك أذفر ، ويومها غداة وليلها
سحر وطعامها هنى وشراها مرى وتاجرها مالك وفقيرها فاك ...

عدت سر مرا في العفاء كأنها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
وأصبح أهلها شديبا بحالها لما نسجتها من جنوب وشمال
إذا ما امرؤ منهم شكاسوء حاله يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ولم يملك ابن المعتز أن يدفع عن نفسه حب سامرا وكره بغداد حتى بعد أن
آوته بغداد وأقام بها لا يريم فكان من قوله :

كيف نومي وقد حلت ببغدا دمقيا في أرضها لا أريم
يبلاد فيها الركابا عليهم سحاب من البعوض تحوم
جوها والشتاء والصيف والفصل دخان وماؤها يحوم
ولم يكن عمر سامرا سوى خمس وخمسين سنة ، أقفرت بعد من وهجرها الناس
ولم يبق بها غير أطلال ، وقد شهد ابن المعتز موتها فرثاها مهوم النفس بادي
الحزن بقوله :

قد أقفرت سر مرا وما لشيء دوام
فالتقص يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منها العظام

عبد العزيز بن سير الأهل

المدرس بالابراهيمية الثانوية